من رسائل القديس صفرونيوس القصيرة

البر الذاتي وأفكار الدنس

من رسائل القديس

الأب صفرونيوس القصيرة

١– الربُّ يحفظ خائفيه، ويحمل الضعفاء على منكبيه، وبستر مظلته يسترهم، وفي ساعة التجربة يمسك بيدهم، فلا يعثرون.

الأخوة الذين تزعِجهم أفكار الدنس، عليهم أن يعلموا أن الانزعاج هو غايةُ الشرير؛ لأنه يكفي أن ننتبه إلى مشورته، لنفقد حياة التأمل وننصرف إلى الأمور السلبية التي لا ثمر فيها.

سألني أحدهم إن كنت أنا نفسي –بعد أن شاب شعر رأسي وبدأت لحيتي تتساقط– أُهاجَمُ بأفكار الدنس وصور وخيالات الحياة الفاسدة؟ فقلت له: نعم، وأحياناً وأنا أُقدِّس تقاطعني الأفكار السوداء. فدُهِشَ الأخ؛ لأنه ظَنَّ أن التقدُّم في العمر يحمي الإنسان من الأفكار المشوشة.

٢– لا الأيام مهما طالت، ولا كثرة السهر، ولا الدوام على الانقطاع عن الطعام يحمي عقل الإنسان من أفكار السوء.

٣– لكن المواظبة على إهمالها وعدم التَطلُّع فيها يُفقِدُها قوتها.

٤– لا تفرح إذا مَرَّت عليك أيامُ هدوء، ولا تنزعج أيضاً، بل ليكن قلبك ثابتاً في الصلاة وخدمة الأخوة؛ لأن الصلاةَ نقاوةٌ للفكر، وخدمة الأخوة، لا سيما التعب، ينقي الجسد من زيادة القوة ويحفظه هادئاً. أمَّا التواضع، فسورٌ عظيم؛ لأن المُتَّكِل على الرب، يجد في اتكاله عزاءً وتصغر نفسه.

٥– لا تحاول حماية فكرك؛ لأنك تُباغَت مهما فعلت، ولكن أجعل لفكرك هدفاً تتطلع إليه. وفي حياة التأمل، يتعلم العقل كيف تفقد المباغَتةُ الشريرةُ قوتها. بعد ذلك، يثير عليك العدو أفكاراً غريبةً لم تعبر مطلقاً بفكرك، وهي من الخبرة الماضية، فلا تفزع ولا تظن أنكَ هالكٌ.

٦– فأنت لا تخلُص بحُسنِ فكرك، ولا تتقدس بخلو فكرك من السوء والظن، وإنما تخلُص برحمة المسيح، وتتقدس بالكلمة، وبالسر العظيم، وبسكنى الروح القدس.

٧– لذلك، لا تقتني في قلبك الاعتقادَ بأن اقترابَكَ أنت من الله هو الذي ينجِّيك، وإنما آمن الإيمان الصحيح بأن اقترابَ الله منكَ متجسِّداً في ابنه الوحيد، هو الذي ينجِّيك.

٨– كلَّما نما إيمانك، زاد اتضاعُك؛ لأنك ترى الله القدوس يمدُّ يدَ المصالحةِ والسلام نحوك. فلا تظن أنه صالحك لأنك أنت الذي تمدُّ يدك إليه؛ لأنه جاء إليك وأعطاك ابنه الوحيد. فهو الذي جذبك نحوه، ولست أنت الذي جذبته؛ لأن ربنا يسوع المسيح قال: "لا يقدر أحدٌ أن يأتي إليَّ، إن لم يجتذبه الآب أولاً". فإن كان هو الذي أتى إليك، فلماذا ينمو برُّكَ الذاتي وتقول: ها أنا أتيت إليه؟ لأن كلَّ مرةٍ يقوى فيها برُّكَ الذاتي، تقوى فيها الأفكارُ المعانِدةُ وتسلبك ذلك الفرح الغريب الذي ليس من الله.

أمَّا سيدنا له المجد، فقد قال: "تفرحون بفرحٍ مجيد"، وأضاف: "ويعجزُ الكلُّ عن أن ينزع فرحكم منكم"، أمَّا هذا الفرح، فهو المسيح نفسه، الذي وَهَبَ ذاته لأجلنا، وبقوة هذه الهبة نتشجع ونتقوى؛ لأنه إن كنا "ونحن خطاة، قد صُولِحنا، فكم بالحري الآن ونحن مُصالَحون"، كيف يتوانى هو عن خلاصنا؟

٩– لنكفّ عن الانزعاج، ولنضع آذان نفوسنا عند كلمة الله الحية القوية التي لها سلطان الحياة، ونسمع خبر الفرح بقيامة ربنا يسوع المسيح، فتكُفُّ شوشرةُ الأرواح الرديئة عنا.

سلامٌ من الربِّ. أنا أخوكم صفرونيوس، أطلب صلواتَكم عني.

\+ + +